مَوْسُوعَةُ

# فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

# سُورَةُ الوَاقِعَةِ


أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# موسوعة فوائد

# القرآن الزكية

## سورة الواقعة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# فوائد سورة الواقعة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجًّا ﴿٤﴾
وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ
﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ
عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾
إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

تناولت سورة الواقعة بيان شأن يوم القيامة، وشيء من أحوالها، وما ينتج عن ذلك من أحوال الناس عند وقوعها، وافتراقهم إلى ثلاث أصناف. فابتدأت السورة الكريمة بقوله عزَّ وجل ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴾ إذا حصل أن وقع يوم القيامة، فإنه ﴿ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ليس لها ما يكذبها من الحقائق والأهوال التي يراها العباد. وقد أفاد معنى ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ ﴾ تحقق الوقوع، إذ هو: اسم من أسماء يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لتحقق وثبوت وقوعها، بأنه واقع لا محالة. وقد أعطى اسمها دلالة التأكيد للوقوع. وتم الاستهلال واستفتاح البيان بأداة الشرط ﴿إِذَا ﴾ لشد الانتباه بأنه ﴿إِذَا وَقَعَتِ ﴾ إذا تحقق شرط وقوع ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ ﴾ فليس هناك ما يكذبها. بما يفيد تعظيم وتهويل هذا اليوم بما تستحق من عظيم شأنها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: افتتاح السورة بالظرف المتضمن الشرط، هو افتتاح بديع، لأنه يسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزماني، مع ما في الاسم المسند إليه من التهويل بتحقق حدث عظيم[١] فإذا وقعت ﴿ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ إذا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٢٢١)

وقعت الواقعة ليس لها ما يكذبها من الحقائق والأهوال التي يراها العباد. إذ ليس لوقوعها صارف يصرفها. وبالتالي يتحقق بوقوعها تجلي الحقائق لمن كذب بها، إذ يرى حقائقها بجميع مداركه وحواسه، بل ويعيش حقيقة يوم القيامة معايشة حقيقية.

ومن حقائقها وأهوالها حين وقوعها أنها ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ فتخفض أناساً إلى أسفل سافلين في نار جهنم، وهم الكفرة بجميع أنواع كفرهم، حيث كانوا في الدنيا متعاظمين ومرفهين ومتعززين ومتعالين بالبطر والكبرياء، فأصبحوا في أسفل سافلين. وكذلك من الأفعال فيها أنها ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ فترفع المؤمنين إلى عليين، في جنات النعيم. أولئك الذين كانوا في الدنيا متواضعين ومخبتين لله تعالى، فلم يغتروا بالدنيا وزخرفها، ولم يتعالوا فيها بالبطر والكبرياء.

ومن أهوالها كذلك ارتجاج الأرض رجاً عنيفاً، حيث قال تعالى ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي: تحركت تحركاً عظيماً من الاهتزاز والاضطراب. وأما حال جبال الأرض نتيجة هذا الاضطراب فقد قال الله تعالى عنها ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي: تفتت تفتتاً عن تماسكها وقوتها وشموخها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فُتِّتِ الجبال فتاً، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول. والتبسيسة عند العرب: الدقيق، أو السويق، يُلَتُّ ويُتَّخَذُ زاداً[1] ولذلك قال تعالى تأكيداً لذلك ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ أي: كالغبار يثور ثم يذهب فلا يبقى منه شيء. لأن الانبثاث في قوله تعالى ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ يفيد معنى التطاير، فتصبح الجبال بصخورها العظيمة تراباً متطايراً. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والهبة: الغبار. والمعنى: كانت تراباً منتشراً[2] بما يعني أنه لم يعد لها ذلك الوجود الشامخ على سطح الأرض يوم القيامة. فكل شموخ زائل ومتواضع، بتهشمه وتبسسه.

ومن دقائق البيان هو قوة التأكيد بالتكرار والإعادة. فقد تكرر الرج في قوله تعالى ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ مرتين. وتكرر الْبَس في قوله تعالى ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ مرتين: لإفادة التأكيد الذي يعطي دلالة التهويل والتعظيم لما يحدث يوم القيامة. وقبل ذلك ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ لتعظيم وتهويل شأنها.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٢/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٧/٧)

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن انقسام الناس إلى ثلاثة أصناف ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي: أصنافاً وأفواجاً ثلاثة. فتكونون أيها الناس ثلاثة أضرب، إذ تُصنَّفُون ثلاثة أصناف مختلفة. فبقدرة الله تعالى يحصل بينهم الانقسام والتوزيع بحسب أعمالهم في الدنيا. ثم يخبر تبارك وتعالى عن هذه الأصناف، فبدأ بيان ربنا تبارك وتعالى بأصحاب اليمين. فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ وهم أصحاب المنزلة الرفيعة، الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، فتكون منزلتهم على اليمين. لأن من دلالة جهة اليمين العلو والمنزلة والمكانة الرفيعة، فدلت وأفادت التكريم والحفاوة. وفي قوله تعالى ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ما يفيد التعجب بعظيم الحفاوة. قال الفراء رحمه الله تعالى: عَجَّبَ نبيه صلى الله عليه وسلم منهم. والمعنى: أي شيء هم؟ قال الزجاج رحمه الله تعالى: وهذا اللفظ في العربية: مجراه مجرى التعجب. ومجراه من الله تعالى في مخاطبة العباد: ما يعظم به الشأن عندهم[١] مما يفيد أن العناية استوفت حتى البيان بمقامهم. بما يفيد الترغيب في الوصول إلى هذه المنزلة العظيمة بالاستجابة لله تعالى ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما الصنف الثاني: هم ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأصحاب الشمال الذين يُؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. والعرب تُسمّي اليد اليسرى: الشُّؤْمَى[٢] وفي قوله تعالى ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ما يفيد تعجب الإهانة والاستخفاف بحالهم، وما سيكونون عليه من العذاب المهين. فهو تعجيب من مآلهم السيء. وهو ما يعظم به هول حالهم الأليم.

وأما الصنف الثالث: فهم السابقون، قال تعالى عنهم ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ وهم الذين كان لهم السبق بالإيمان. قال الحسن وقتادة رحمهم الله تعالى: أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة[٣] وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: هم الذين سبقوا إلى الايمان بالله ورسوله. وهم المهاجرون الأولون[٤] وقال القرطبي نقلاً عن الزجاج رحمهم الله تعالى: والمعنى: السابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمة الله تعالى[٥] ولم يأت البيان الكريم بحصر دلالة ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ في دلالة محددة، بل وردت مطلقة، بما يجعلها تستوعب دلالات

---

(١) المرجع السابق (٢٧٧/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٦/٢٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٨/٧)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٧/٢٢)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/١٧) وكذلك أشار إليه ابن الجوزي (٢٧٨/٧)

السبق والمبادرة إلى الإسلام، وإلى طاعة الله تعالى، وقبول الحق، ومن سبق إلى دين الله تعالى في كل أمة من أمم الأنبياء والمرسلين السابقين. ليستوفي بذلك قوله تعالى ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ من كانوا على الإيمان والطاعة، ولكن قَصَرُوا عن السابقين، فلم يكونوا مثلهم. فميز الله تبارك وتعالى أولئك عن هؤلاء. وبالتالي لا يمنع أن تكون دلالة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ تستوعب المبادرون من كل أمة، ومنهم المهاجرون والأنصار، لأنهم السابقون إلى الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وتستوعب كذلك دلالة السابقون إلى طاعة الله تعالى في كل وقت وزمن إلى أن تقوم الساعة. ومن جمال المدح وقوة الثناء لهم هو التكرار للسبق، حيث قال تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ لإفادة التعظيم والتفخيم لهم ولمقامهم عند ربهم سبحانه وتعالى.

ونقل الشوكاني رحمه الله تعالى عن تأخير الصنف الثالث: أنه قيل: ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأولين هو أن يقترن بما بعده، وهو قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[١] أي: مقربون من الله تعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أولئك الذين يقربهم الله تعالى منه يوم القيامة، إذا أدخلهم الجنة[٢] وفي هذا البيان الكريم وعظ عظيم من الله تعالى لجميع الناس، بالترغيب والتبشير للمطيع بالمقام المحمود، والترهيب والإنذار للعاصي بما يستحق من العذاب، حتى تُؤخذ كل نفس بما كسبت، عدل من الله تعالى مع العباد.

ثم يخبر الله تعالى بحال هؤلاء الذين لهم القرب منه عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله: بأنهم ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهم في جنات كثيرة، قد اتصفت بالنعيم الذي لا يزول ولا يحول، وقد انتفى منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء. فَبَلَّغَهم الله سبحانه وتعالى المأمولَ والمطلوب في الآخرة، وهي جناته سبحانه وتعالى الموصوفة بالنعيم ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بما يفيد كمال النعمة وكثرته، التي لا حدود لها، والتي فيها طيب العيش، ولينه وخصبه، الذي لا يزول. وقد دل وأفاد الجمع للجنات ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ على كثرة بساتينها وتعددها وتنوعها. وسماها عَزَّ وجل بالنعيم، الذي ينتفي معه جميع ما يضاد النعيم، كالنصب والتعب، والهم والحزن. فليس فيها إلا النعيم والسعادة والرفاهية فقط لا غير.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٤٨/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩١/٢٢)

ثم يخبر تبارك وتعالى بنصيب الأجيال المتتابعة من جنات النعيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ والثلة هي الجماعة الكبيرة والكثيرة، غير المحصورة العدد من الناس، ونعتهم ووصفهم بأنهم سبحانه وتعالى ﴿ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: أولئك السابقون من الأمم الذين صدقوا برسولهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي: من هذه الأمة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد اختلفوا في المراد بقوله: الأولين والآخرين. فقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية. وبالآخرين هذه الأمة، وهذه رواية عن مجاهد، والحسن البصري، وهو اختيار ابن جرير[١] والقول الثاني: أن الأولين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآخرين هم التابعون لهم. والقول الثالث: أن الأولين والآخرين: من أصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٢] وهذه من رحابة الدلالة في القرآن الكريم التي تستوفي تلك المعاني، فإن قال قائل بواحدة من تلك الدلالات: فقد قصر المعنى على ما ترجح عنده، وإن أخذ بجميع الدلالات فقد استوفى كمال المعنى، لأنها تعني هذا وهذا. والله تعالى أعلم.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن مزيد نعيمها، فيقول عَزَّ وجل ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ ﴾ يجلس أهل الجنة على سرر ﴿مَّوۡضُونَةٍ ﴾ أي: منسوجة ومكللة ومشبكة بالذهب والياقوت والدرر. وكأنما أُدخل بعضها في بعض. وقيل: عن الأسرَّة أنها في غاية من الروعة والبهجة، إذ تتحول في الاتجاه كيفما أرادوا. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[٣] ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. وقد جمع أهلها بين السعادة النفسية بالاتكاء، وبين سعادة الاجتماع بغيرهم من أهل الجنة. فهم متقابلون فيما بينهم.

والاتكاء يعطي وصفاً دقيقاً لحالهم على الأسرة ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا ﴾ فأعطى الاتكاء دلالة المبالغة في الراحة، لأن الاتكاء لا يكون من التعب، ولا يكون للنوم، فالمتعب والمجهد يستلقي على ظهره، مما يدل على المبالغة في الرفاهية. ومن مزيد النعيم هو مقابلة واجتماع أهل الجنة لبعضهم البعض ﴿مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. مما يبين

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٤/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٩/٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)

كرامتهم، وأن أهل الجنة يتقابلون، ويجتمعون، ويجلسون مع بعضهم البعض في أدب من المقابلة التي لا يتدابرون فيها. وهو فضل من الله تعالى عظيم، مما يستوجب السعي الحثيث في طاعته تبارك وتعالى. كما يفيد ذلك أن من آداب الجلوس هو عدم التدابر، بأن لا يعطي الجالس قفاه وخلفه لغيره، بل يكون الجلوس مقابلة، ما أمكن ذلك، إلا أن تكون هناك ضرورة وحاجة.

ومن مزيد نعيم الجنة أنه يدور عليهم بما يشتهون من المأكولات والمشروبات. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فيدور ويتنقل بينهم من يقوم بخدمتهم. فدلالة الطواف عليهم تبين وتوضح: أن من يخدمهم يترددون عليهم بما يشتهون، وأن صفات الذين يقومون بخدمتهم أنهم ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ أي: فتية ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فهم مخلدون للبقاء، فلا يتغيرون، بما يفيد الثبات، مع أهل الجنة، فليس لذلك نهاية أبداً، ولا يتطاول بهم الزمن، بل ثابتون على ما هم عليه من الوصف والخدمة. فهم خاصين بهم وبخدمتهم. وقد بلغوا من جمالهم وجميل ترتيبهم في هيئتهم وزينتهم أنهم مثل اللؤلؤ المصون، بما يدل على نفاسته. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كأنهم لؤلؤ في بياضهم وصفائهم. وعن قتادة: ذُكِر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف بالمخدوم؟ فقال صلى الله عليه وسلم (والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)[١] مما يبين كمال الجمال والتألق الذي لا يضاهيه شيء، ولا يمكن أن يتصوره أهل الدنيا كما هو في الآخرة، إلا الوصف والنعت فقط. اللهم إنا نسألك الجنة وأهلينا أجمعين، وإخواننا المسلمين يا رب العالمين، بمنّكَ وفضلك وكرمك.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بالأشياء التي يدورون به على أهل الجنة، فقال تعالى ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ فيطوفون عليهم بثلاثة أنواع أو أصناف وأحجام من الآنية ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ والأكواب جمع كوب، وهي الكؤوس التي لا عُرى لها، فتكون من أفخر وأحسن ما تكون الأكواب. فهي الآنية التي لا عروة ولا خرطوم لها. والنوع الثاني من الآنية ﴿وَأَبَارِيقَ ﴾ وهي الأنية ذات العرى، أو العروة، ولها خراطيم، ليتم صَبّ المشروب منها. والنوع الثالث من الآنية: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ بكأس من ماء طاهر. فالمعين هو: الماء الطاهر الجاري، فيُطاف عليهم بكؤوس من خمر، بيضاء في لونها، ولذيذة في شربها، من أنهار جارية لا تنقطع، قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يطوف الخدم عليهم بكأس من خمر جارية، ظاهرة لأعينهم غير غائرة. وعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: كأس من خمر جارية، والمعين هي: الجارية. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: كل كأس في القرآن فهو خمر. ومن فوائد الدلالات ما قاله السدي رحمه الله تعالى: أن الخمر والكأس عند العرب هو كل إناء فيه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٩/٢١)

شراب، فإن لم يكن فيه شراب لم يكن كأساً، ولكنه يكون إناء[١] وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الكأس: الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: الكأس: الإناء الذي فيه الخمر. وتقع الكأس على كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. والمعين الخمر، يجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون[٢] مما يبين أن خمر اللجنة نعيم في طعمه، وفي كثرته، وصفائه ولونه، وليس فيه ما يؤذي شاربه كخمور الدنيا.

ومن جميل أوصاف مشروباتهم أنه لا يحدث منها، أو من كثرتها ما تتصدع منه النفوس. فقال تعالى عنها ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي: ليس فيها مما هو من خمر الدنيا من الأذى للجسم ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ ﴾ لا يصابون بالصداع الذي ينتاب شاربي خمر الدنيا، فهي منزهه عن أن يصيب شاربها من آلام الرأس وصداعه. وكذلك فإنها لا تذهب بعقولهم، إذ نفى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، فتحرفها وتخلفها عما هي عليه، لأن النزف يعطي دلالة الخروج عن المسار والاتجاه. فنقول: ينزف دماً، أي: خرج الدم عن مساره في الجسم. فلا يُصاب شاربها بأي أذى، فقد انتفى منها كل أذى. وفي ذلك تزكية وبيان وتنزيه لها عن خمور الدنيا. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني لا تؤثر فيهم غولاً، وهو وجع البطن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وقتادة وابن زيد، كما تفعله خمر الدنيا. وقال أيضاً: والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن، وذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنزهها عن هذه الخصال[٣] وفي ذلك ثناء ومدح لخمر الجنة، وأنها مخالفة لما هي عليه خمور الدنيا. ونسأل الله تعالى الجنة من غير حساب ولا سابق عذاب، بمنك وكرمك يا رب العالمين.

ومن مزيد نعيمها ما يتعلق بفاكهتها وأطعمتها، فيقول عنها سبحانه وتعالى ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ وتأكلون من ثمار الجنة مما تحبون، فمن كثرتها أنهم منها يتخيرون بحسب ما يحبون ويشتهون. وتدل دلالة الفاكهة ﴿ وَفَٰكِهَةٍ ﴾ أنها جميع الثمار التي يتلذذ بأكلها أهل الجنة، وهذه الفاكهة من كثرتها أنها بحسب اختيار كل آكل وراغب في أكلها، فقال تعالى ﴿ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ مما يعني كثرة عددها، وكثرة أنواعها، بما يفيد أن ثمارها

(١) المرجع السابق (١٩/٥٣٠-٥٣١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٨)

لا تنتهي، مهما تم القطف منها، وأنها متنوعة تنوعاً لا حصر له. وقد عزز وأكد قوله سبحانه وتعالى ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ توفر وجودها من غير انقطاع. وفي دلالة ﴿مِمَّا﴾ ما يدل على التبعيض، فلكثرتها وتنوعها فسوف يأكلون منها بحسب ما ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ ويبقى الكثير، بما يدل على أنها لا تنتهي مهما بلغ الأكل منها. وورد الأكل بصيغة المضارع، ليدل على تجدد أكلهم منها، واستمراره، فلا تنقطع عنهم، ولا ينقطعون عنها. اللهم نسألك هذا النعيم، بأن ترزقنا والمسلمين أجمعين الجنة بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

وكذلك من مزيد نعيم الجنة أن أهلها يتنعمون بأكل الطيور، فقال تعالى ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وزدناهم بواسع فضلنا على ما هم فيه من النعيم بفاكهة كثيرة، فإنهم كذلك يتنعمون بجميع أنواع لحوم الطيور ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: بما يشتهون ويطلبون من أنواع لحوم الطير. وتفيد دلالة ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ غزارة الإمداد بكل نوع تشتهيه نفوس أهل الجنة من لحوم الطير، فضلاً عن بقية اللحوم الأخرى التي ورد التعميم بها في سورة الطور ﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وقد أعطت دلالة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أنه بمجرد اشتهاء اللحم، فإنه يأتيهم وفق الهيئة والنوع الذي جال في خواطرهم. كما أفادت ﴿مِمَّا﴾ ما يدل على التبعيض، فلكثرتها وتنوعها فسوف يأكلون منها بحسب ما ﴿يَشْتَهُونَ﴾ بما يفيد ويدل على أنها لا تنتهي مهما بلغ الأكل منها. وورد الاشتهاء بصيغة المضارع ﴿يَشْتَهُونَ﴾ ليدل على تجدد أكلهم منها، واستمراره، فلا ينقطع عنهم، ولا ينقطعون عما يشتهون. اللهم نسألك هذا النعيم، بأن ترزقنا والمسلمين أجمعين الجنة بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ومن مزيد نعيمها أنهم يجدون فيها ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ والحور هن نساء الجنة الموصوفات بجمال البياض النقي، مع سعة العيون. قال مجاهد رحمه الله تعالى: والحور: اللاتي يحار فيهم الطرف. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الحور هو نقاء البياض. كما قيل للنقي البياض من الطعام: الحُوَّارَى[1] وهو فضل من الله تعالى عظيم، مما يستوجب السعي الحثيث في طاعة الله تبارك وتعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٦٥)

ومن دقائق جمالهن قوله تعالى عنهن ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أي: أن الحور العين في جمالهن كاللؤلؤ المصون لنفاسته. فدلالة ﴿ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ تدل على المبالغة العالية جداً في جمالهن وحفظهن كما هو جمال اللؤلؤ، وحفظه في أكناف الصدف لنفاسته. فقد حفظه الله تعالى كما حفظ الحور العين، وبالغ في جمالهن والعناية بهن، إكراماً لأهل جنته. وكذلك كأنهن لؤلؤ في بياضهن وصفائهن. مما يبين كمال الجمال والتألق الذي لا يضاهيه شيء، ولا يمكن أن يتصوره أهل الدنيا إلا الوصف والنعت منه فقط. مما يبين عظيم كرم وعطاء الله سبحانه وتعالى. اللهم إنا نسألك الجنة وأهلينا أجمعين، وإخواننا المسلمين يا رب العالمين، بمنِّكَ وفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن علة وسبب هذا التكريم لأهل الجنة ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً لما كان من طاعتهم لربهم، وامتثالهم لما جاءهم من الحق. فكانوا سابقين في الطاعة، فأسبق الله تعالى عليهم من كريم عطائه وثوابه. مما يحث به العباد على طاعة ربهم سبحانه وتعالى، والتفاني في ذلك، للسعادة التي ليس لها مثيل ولا انقطاع.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من محاور سعادة أهل الجنة أنهم لا يسمعون ما يكدر خواطرهم من الأخبار والكلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ فإن من نعيم اللجنة أن أهلها ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ وهو الكلام الذي لا قيمة له، فضلاً عن الكلام الباطل، والكلام الذي يكدر الخاطر، ويزعج النفس. فجمعت وحوت دلالة ﴿ لَغْوًا ﴾ جميع ما لا فائدة فيه، وهو ما لا يحبه الإنسان العاقل، وقد نفى تبارك وتعالى الأدنى من المنقصات، بما يفيد انتفاء الأشر منه. فانتفاء الأدنى دليل على انتفاء ما هو أعلى منه، كالكلام الباطل والفاحش، فلن يسمعوا شيئاً من ذلك البتة. مما يبين أن حال أهل الجنة هو نعيم خالص. وليس كحال الدنيا التي يسمع الإنسان فيها ما يكرهه من أدنى وأعلى اللغو في الكلام وفواحشه، فبذلك نزه الله تبارك وتعالى مقام الجنة وأهلها من اللغو، مما يدل على أهمية أن ينزه الإنسان نفسه عن ذلك في الدنيا كذلك، فليس هو من خصال الدرجات العالية، حتى وإن مر المؤمن بشيء من اللغو ترفع عنه، فمر به وهو كريم، أي: مرور الكرام. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه، حيث نَزَّه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها. وما أحسن قوله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة القصص ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ نعوذ بالله من اللغو

والجهل، والخوض فيما لا يعنينا[١] وفي هذا الوصف لحال الجنة ما يستدعي كل عاقل أن يحرص على ما يُدخله الجنة، بطاعة الله سبحانه وتعالى، وفق ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان: ورود نفي السماع بصيغة المضارع ﴿ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الذي يفيد الاستمرار في نفي سماع اللغو، كما أن في نفي السماع، ما ينفي المشاهدة له. وهذا من دقائق البيان وبلاغة الوصف بالاستغناء عن زوائده، والاكتفاء بما يغني غيره عنه. وكذلك من نعيم الجنة أن أهلها لا يسمعون فيها ما يكدر وينقص عليهم سعادتهم، فلا يسمعون ولا يأتون ما يؤثمهم ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ فلا يكون منهم أي عمل يؤثمون به. فممتنع أن يحصل منهم ذلك بفضله ومَنِّهِ عليهم سبحانه وتعالى. وهذا من علو وقوة نعيم الجنة، فلا حاجة عندهم لارتكاب ما يؤثمون به، سواء كان سماعاً أو رؤية أو فعلاً. فلا يرونه ولا يسمعونه ولا يأتونه. وهذا من كمال السعادة التي وصلت لذروتها وكمالها وتمامها.

ومن مزيد نعيمها أنهم لا يسمعون إلا الكلام الجميل، الذي امتلأ أماناً وسلامة، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ فلا يسمعون إلا تسليم الملائكة عليهم، وسلام بعضهم على بعض، وما يسلمهم ويأمنهم ويَطْمَئِنُّون به، وتنشرح به صدورهم. وقد ورد البيان للسلام بأسلوب النفي، والحصر، والمبالغة ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ فهذا نفي كامل وتام، ثم قال تعالى ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا ﴾ فأفاد الحصر، أي حصر السماع في السلام والمسالمة من كل إثم ولغو. ثم المبالغة ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ فالسلام الثانية ﴿ سَلَٰمًا ﴾ تفيد المبالغة في حصر السماع للكلام السليم الخالي من كل لغو. وهذه نعمة عظيمة، وبيان عظيم، وترغيب نفيس وجليل وعظيم لطاعته تبارك وتعالى، باتباع ما جاء به رسوله، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد حصر سبحانه وتعالى سماعهم فيما يسرهم ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ فلا يسمعون إلا تسليم الملائكة عليهم، وسلام بعضهم على بعض، وما يسلمهم ويأمنهم ويطمئنون به، وتنشرح به صدورهم، لأن السلام كما قال مقاتل وغيره، رحمهم الله تعالى: السلام اسم جامع للخير، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون[٢] ومن جمال البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن استثناء السلام من اللغو، إذ أن السلام ليس من اللغو ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾: قال أبو عبيدة: السلام ليس من اللغو.

(١) الزمخشري، الكشاف (٢٦/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٥/١١)

والعرب تستثني الشيء بعد الشيء وليس منه. وذلك أنها تُضمر فيه. فالمعنى: إلا أنهم يسمعون فيها سلاماً. وقال ابن الأنباري: استثنى السلام من غير جنسه، وفي ذلك توكيد للمعنى المقصود، لأنهم إذا لم يسمعوا من اللغو إلا السلام، فليس يسمعون لغواً البتة[1] وهذه من جماليات السياق في العرض والبيان. اللهم إنا نسألك الجنة لنا ولأهلينا أجمعين، ولجميع إخواننا المسلمين يا رب العالمين، بمنّك وفضلك وكرمك.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وبعد أن أفاضت الآيات الكريمة من الله تعالى فيما للسابقين من الحفاوة والدرجات العظيمة، والنعيم المقيم في جنات النعيم، انتقل البيان الكريم للصنف الثاني من أهل الجنة، فقال تعالى ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ فعطف الله تبارك وتعالى أصحاب اليمين الذين هم الأبرار على السابقين الذين هم المقربون. وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، وهم أصحاب المنزلة الرفيعة، الذين منزلتهم على اليمين. لأن جهة اليمين تدل وتفيد على علو المكانة والمنزلة، وعظيم التكريم والحفاوة. وأما في قوله تعالى ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ ما يفيد التعظيم، مع تفخيم الحفاوة. قال الفراء رحمه الله تعالى: عَجَّبَ نبيه صلى الله عليه وسلم منهم. والمعنى: أي: شيء هم؟ قال الزجاج رحمه الله تعالى: وهذا اللفظ في العربية: مجراه مجرى التعجب. ومجراه من الله تعالى في مخاطبة العباد: ما يعظم به الشأن عندهم[2] مما يفيد أن العناية بهم قد استوفت حتى البيان بمقامهم. وبما يفيد الترغيب في الوصول إلى هذه المنزلة العظيمة، والحث عليها.

ثم شرع البيان الكريم في وصف ما أعده الله تعالى لأصحاب اليمين في جنات النعيم، وما ينالونه من عظيم الحفاوة، فقال عَزَّ وجل ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴾ إنهم في جنات قد خُضِد سدرها، أي: قُطع وأزيل شوكها، والخضد هو الإزالة، فلا شوك فيها. فقد خلقه الله تعالى على أجمل وأكمل ما يكون عليه السدر، وهي الشجرة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٢/٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٧/٧)

التي تُثمر النبق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا شوك فيه. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: هو الموقر حملاً[١] وقد ورد بيانها بصيغة الجمع ﴿ فِي سِدۡرٍ ﴾ ليدل على كثرته، والثناء عليه، فهو شجر مبارك وموقر. وهذا الوصف هو على ما يعرفون من سدر الدنيا، وإلا ليس هناك تساوي بينهما إلا الاسم.

وكذلك احتوت الجنة على شجر الطلح ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ وهو شجر الموز. قاله علي، وابن عباس، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، وغيرهم. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: المنضود المتراكب، الذي قد نَضُد أوله وآخره بالحمل، والنضد هو الرص[٢] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن له نَوَّراً وريحاً طيبة، فقد وعدهم بما يعرفون، ويميلون إليه، وإن لم يقع التساوي بينه وبين ما في الدنيا. وأما ﴿ مَّنضُودٖ ﴾ فقال ابن قتيبة: هو الذي قد نُضِدَ بالحمل، أو بالورق، والحمل من أوله إلى آخره، فليس له ساق بارزة[٣] فهو مملوء بالحمل من الموز، من أعلاه إلى أسفله، وليست له ساق بارزة وظاهرة. مما يبين ويظهر وصف جماله، وجمال حمله، وكثرة عطائه.

وأما هيئة وشكل ومساحة ظلال أشجار هذه الجنة، فيقول الله تعالى عنها ﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴾ أي: منبسط، فلا يتقلص كما هو في الدنيا، فهو ظل قد اتصف بالامتداد والاستدامة، وعدم الزوال. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والجنة كلها ظل لا شمس معه[٤] وأما هيئة ماء هذه الجنة فهو كما قال تعالى ﴿ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴾ أي: ماء يجري متدفقاً في كثرته، فلا ينقطع أبداً. بما يفيد الكثرة، لأن المسكوب هو الذي أُطلق له السريان والجريان بقوة، فأنهارها عظيمة التدفق. وأما فاكهتها فلا حصر لها. كما قال تعالى ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴾ أي: لا حصر لها. بما يفيد الكثرة مع التنوع الذي لا حصر لعدده، ولا لأنواعه، ليحصل أهل الجنة على ما تشتهيه أنفسهم.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من أوصاف تلك الثمار أنها ﴿ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ أي: أنها مطلقة من وجهين: الأول أنها ﴿ لَّا مَقۡطُوعَةٖ ﴾ فثمارها غير مقطوعة ومقطوفة إلا حين يريدها آكلها. وهي دائمة في

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٦/٢٢-٣٠٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٥/١٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٣/٧)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (١٥٠/٥)

عطائها وبذلها. كما تعني: لا ينقطع انتاجها، ولا ينتهي، فهي دائمة العطاء لثمارها، وليس لها مواسم تتوقف فيه، ومواسم تُثمر وتعطي فيه، بل مستمرة في العطاء.

وأما الدلالة الثانية: فهي متعلقة بالمنع ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ فلا يُمنع الأخذ منها، بسبب شوك فيها، ولا بسبب بُعد المسافة، ولا بسبب العلو والارتفاع، فلا مشقة تمنع من الحصول عليها، كما وأنها من غير أسوار لها، فيمتنع على الآكل أكلها إلا من خلال مداخل لها. بل هي مطلقة من أي جهة وجدها، وكذلك لا يمتنع التفكه بها بسبب أي فساد يصل إليها. وهذا من عظيم خلق الله تعالى وكرمه ورحمته، وجلال النعمة، كما أن هذا السياق هو من عظيم بلاغة البيان، إذ أطلق الدلالة لها من كل وجه، لتستوفي جميع دلالات نفي القطع، ونفي المنع. فسبحان من أعجز ببيانه كما أعجز بعظيم عطائه وكرمه وإحسانه. ليدل بأنه كما أن هذا القرآن كلام الله تعالى حقيقة، فكذلك ما أخبركم به هو حقيقة، فكل منهما يعضد الآخر. فسبحان من أعجز بكلامه وعظمة بيانه عباده. ليثبت أنه كلامه العظيم، الْمُنَزَّه عن أي شك وريبة.

ثم ذكر تبارك وتعالى وصفاً عميقاً وعظيما لِفُرش هذه الجنة، فقال تعالى ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي: أن فُرُش الجنة مرفوعة فوق الأسرة، وكذلك مرتفعة بعظمة حشو فرشها، ليزداد الاستمتاع والرفاهية بها. ثم يذكر تبارك وتعالى حال الزوجات في الجنة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ إنا خلقناهن خلقًا وإبداعاً. وورد البيان عاماً، ليشمل الحور العين، وكذلك زوجات أهل الجنة ممن كُنَّ لهم في الدنيا من المؤمنات. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: خلقناهن خلقاً، وأبدعناهن إبداعا. والعرب تسمي المرأة: فراشاً ولباساً وإزاراً. وقد قال الله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[١] وقد أعطت دلالة ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ إعادة خلق الزوجات المؤمنات شباباً كما كن في الدنيا حال شبابهن، فيزول هرم من هرمت. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي المشار إليهن قولان: أحدهما: أنهن نساء أهل الدنيا المؤمنات. ثم في إنشائهن قولان: أحدهما: إنشاؤهن من القبور. قاله ابن عباس. والثاني: إعادتهن بعد الشمط والكبر صغاراً قاله الضحاك. والثاني: أنهن الحور العين، وإنشاؤهن: إيجادهن عن غير ولادة، قاله الزجاج. والصواب أن يقال: إن الإنشاء عمهن كلهن، فالحور العين انشئن ابتداء، والمؤمنات انشئن بالإعادة وتغيير الصفات[٢] وهذا من الإعجاز في البيان، إذ اكتفى السياق بقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ فلم يذكر المنشآت بالتعيين والتسمية، لتستوفي الدلالتين تماماً. ومن عظيم التكريم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٣٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٨٤)

أن أسند الإنشاء له سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ وبلا شك أن الْمُنْشِئ هو الله تعالى، ولكن في الإسناد مزيد تكريم، فقد أنشأناهن لكم يا أصحاب اليمين، إكراماً وتفضلاً.

ثم أكد التعريف بهن توضيحاً وتأكيداً، بأن المقصود بهن زوجات أهل الجنة، حيث قال تعالى مباشرة ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾ وذلك بعد ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ كما وصفهن عَزَّ وجل بأنهن ﴿ أَبۡكَارًا ﴾ أي: عذارى، سواء كن حور العين، أو المؤمنات من أهل الجنة. فحور العين باعتبار أنهن أنشئن ابتداء، والمؤمنات بالإعادة والتغير بما حصل من الإنشاء. ومن دقائق الوصف لهن، أنهن ﴿ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾ فإن من جميل أحوالهن أنهن ﴿ عُرُبًا ﴾ أي: متصفات بأنهن متحببات ومتوددات وعواشق لأزواجهن، قال عكرمة رحمه الله تعالى: الْعُرُب: المغنوجة[١] ذوات الحسن في الكلام والغنج. وكذلك من جميل أحوالهن أنهن ﴿أَتۡرَابٗا ﴾ أي: على ميلاد واحد، فهن في سن واحد.

ثم يزداد البيان تتويجاً وتمجيداً لأصحاب اليمين بإظهار التخصيص، من أنهن مُهيآت ومُعدات لأصحاب اليمين، فقال تعالى ﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ فأنشأنهن لأصحاب اليمين، فإن أصحاب اليمين مخصوصون بهن، بما يفيد عظيم العناية بهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: خُلِقْنَا لأصحاب اليمين، أو أُدُّخِرْنَ لأصحاب اليمين. أو زُوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ فتقديره: أنشأنهن لأصحاب اليمين. وهذا توجيه ابن جرير[٢] ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: جماعة وأمة كثيرة من الأولين ﴿ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ وجماعة وأمة كثيرة من الآخرين. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وهي جماعتان وأمتان وفرقتان يعني جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ وجماعة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم[٣] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أنهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأولين، وهم من لدن آدم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك: ثلة من الأولين. يعني من سابقي هذه الأمة،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٤/٢٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٤/٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣٠/٢٢)

وثلة من الآخرين من هذه الأمة[١] فدلالة ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ شاملة للمؤمنين من الأمم السابقة، ودلالة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ شاملة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى ما للسابقين وما لأصحاب اليمين من عظيم المنزلة والتكريم، ينتقل الإخبار بالبيان العظيم إلى أهوال أصحاب الشمال من العذاب، الذين هم أصحاب النار. فقال تعالى ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأصحاب الشمال الذين يُؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار [٢] وفي قوله تعالى ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ما يفيد تضخيم ذكرهم في البلاء والعذاب المهين. كما هو تعجب مما يلحقهم من الإهانة والاستخفاف بحالهم، وما سيكونون عليه من الإهانة والعذاب المهين. فهو تعجيب من مآلهم السيء. وهو ما يعظم به هول حالهم الأليم. ليفيد الإنذار من عاقبة الكفر، والدعوة للنجاة من ذلك بالدخول في دين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر الله تبارك وتعالى ما ينالهم من العذاب، نتيجة كفرهم وعنادهم، فقال تعالى ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ إن أصحاب الشمال يعيشون ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ وهو حَرُّ وفيح النار. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أي: الريح الشديد الحرارة، الذي لا بلل معه، وكأنه مأخوذ من السُم، وهو ما يهلك إذا لاقى الأبدان[٣] فهو فيح حَرِّ جهنم. وهو ما يدخل في مسام البدن. وأما الماء فهو ما اشتد غليانه ﴿وَحَمِيمٍ ﴾ وهو الماء الشديد

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٥٣/٥)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٦/٢٢)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٠/١١)

في حرارته وغليانه. ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ هو الظل الذي تَخَلَّق وتَكَوَّن من الدخان الأسود، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ظل الدخان[١] أي: دخان جهنم. ثم من المبالغة في شدة حرارته أن نفى الله تعالى عنه أي صفة من صفات البرودة الطيبة، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فنفى عنه صفتين: الأولى: أنه ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ فليس ظل بارد، لأن الأصل في الظلال أنها باردة، أو أقل حرارة من المباشرة للشمس. فإن هذا الظل محمول بالدخان الأسود الحار الكريه. والصفة الثانية: أنه ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فانتفى ما يتكرم به المستظل من الظلال المحمودة. فهو ظل كريه، فانتفت منه كل المحاسن، ولم يبق فيه إلا مواصفات الرداءة، والكراهة والعذاب.

ثم يعلل سبحانه وتعالى سبب هذا العذاب، بأنه نتيجة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ فقد كانوا قبل هذا العذاب مترفين بالكفر والفجور والفسوق في الدنيا، فانشغلوا بترف الدنيا عن طاعة الله تعالى، والاستجابة للمرسلين. فكان جزاء وفاقاً. وأيضاً من أحوالهم في الدنيا أنهم ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وكان من أحوالهم أيضاً في الدنيا أنهم في إصرار على ﴿ٱلْحِنثِ ﴾ الذي هو: الشرك، والذنوب المتناهية في عظمتها. والتكذيب بالبعث، وعموم الكفر. ومن ذلك حنث اليمين، الذي يعني أنه العمل بخلاف ما يجب عليه، وخلاف ما أقسم عليه، فلم يبالي، وآثر رغباته على ما تعهد به على نفسه. وقد وصفه الله تعالى بأنه ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴾ لبيان فداحته، وتهويل شره وشدته.

ثم يخبر الله تعالى بما استوجب لهم هذا العذاب المهين، وهو ما كان من أقوالهم وردودهم السيئة على الحق أثناء حياتهم الدنيا، وذلك بالاستهزاء والكفر، والاستنكار ليوم البعث، إذ أنهم كانوا يقولون بما بينه الله تعالى عنهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فقد عززوا كفرهم بالبعث وإنكاره بما كان منهم من الجزم باستحالة إعادة العظام وهي رميم ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ أي: أنهم كانوا يقولون في الدنيا لمن ينصحهم ويرشد للإيمان ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فهو استبعاد عودة الحياة للأجساد التي أصبحت بالية بعد الموت، وقد اعترضوا على البعث بأسلوب الاستفهام والاستنكار، أيمكن أن نُبعث إذا متنا وبُليت أجسامنا؟ ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وتحولت اجسامنا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣٥/٢٢)

إلى تراب، وأصبح ليس لها وجود، بل أصبحت أجسامنا تراباً ﴿وَعِظَٰمًا﴾ خالية مما كان يكسوها من اللحم. فأصبحنا عظاماً بلا أجساد. سؤال استبعاد يقررون به استحالة عودة الحياة للإنسان بعد أن يتحلل إلى تراب ويبلى، ويكون عظاماً نخرة، خالية مما تحيا به الأجساد. فهو قول على سبيل الاستبعاد والإنكار لعودة حياة الإنسان بعد تحوله إلى تلك الحال من التراب والعظام النخرة.

سؤال استنكار واستغراب منهم لمن ينصحهم ويذكرهم بالبعث بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أيعقل ذلك؟ سؤال استبعاد. وهو في نفس الوقت استهجان لنتاجهم الفكري، وما توصلوا إليه من الاستبعاد المنافي للأدلة والبراهين التي أظهرها الله تعالى. فالعلة عندهم هو بسبب عدم ربطهم البعث بكمال القدرة للقادر الخالق سبحانه وتعالى، الذي أبان لكل مُكذب ومُنكر ما يُوجِب عليه الإيمان بحقيقة البعث بعد الموت. مما يفيد ويُعَلِّم الإنسان بأن لا يقيس قدرات الخالق عَزَّ في علاه على المخلوق الضعيف. ولا يُجرِّد ذلك من بيان الله تعالى عما أبان من ظواهر القدرة الربانية التي تجلت عظمتها في الإنسان، وفيما يحيط به من دلائل الكون. والتي منها عظمة خلق السماوات والأرض، والكواكب المضيئة، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، وظهور الليل بعد انعدامه، وظهور النهار بعد غيابه. فالذي أعاد ذلك بعد غيابه قادر على أن يعيد الإنسان بعد موته.

ثم يبنون استفهاماً جديداً على استفهامهم الأول، تأكيداً واستدلالاً خاطئاً منهم على نفي البعث، فقال الله تعالى عنهم: وكانوا يقولون ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ فيقولون تعجباً واستنكاراً: أيبعث الله تعالى حتى أسلافنا من الآباء الأقدمون الذين ماتوا وتلاشت أجسامهم واختلطت بتراب الأرض؟ يريدون تقوية مزاعمهم المخالفة للحقائق والدلائل. ولكن من حكمة الله تعالى ورحمته أنه يرد عليهم، ولم يسارع لهم في العقوبة، فيوجه الله تعالى الإجابة إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ قل يا أيها الرسول لهم، صلى الله عليه وسلم: إن الأولين ممن سبقكم من الأمم والأجيال السابقة، وغيرهم من الآخرين من آبائكم، وأنتم ومن بعدكم ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ لمجموعون مع بعضكم البعض ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ وهو يوم القيامة، الذي هو معلوم موعده عند ربكم سبحانه وتعالى ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ فهو معلوم وليس مجهول لم يتحدد موعده، بل قد تم تعيينه وتحديد ساعته. مما يبين تقدير الله تعالى لمدة هذه الحياة الدنيا، وساعة انقضائها. فالأمر إليه، والتدبير له عَزَّ وجل.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما سيكون من حالهم إذا جاء اليوم المعلوم لقيام الساعة، فبدأ تبارك وتعالى بتعيينهم تعيناً مؤكداً، مع وصفهم بما هم عليه من الضلال والتكذيب، فقال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ

﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ ثم إذا قامت الساعة في ذلك اليوم المعلوم، فإنكم ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهون عن الهدى، وعن الطريق المستقيم الذي جاءكم من ربكم ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ فكذبتم به، ولم تستجيبوا للهدى وتتبعوه ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ فإنكم في ذلك اليوم ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ لطاعمون من شجر غير الشجر الذي تعرفون، فإنه ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ هي شجرة مخصوصة لأهل النار، فقد جعل الله تعالى مخرجها من قعر جهنم، فأصلها في مُنْتَهى قعر جهنم، وترتفع أغصانها إلى أعلى جهنم، طعاماً لأهل النار، فهو طعام تعذيب لهم، من شدة قبحه وكراهية طعمه ومنظره. قال الله تعالى عن صفة هذا الطعام في سورة الصافات ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وأما ما يطلع من ثمارها فإنه يشبه رؤوس الشياطين. وورد التشبيه برؤوس الشياطين، ليكون الوصف من باب الاستقباح والتهويل، وذلك لقبح الشياطين، ومن ذلك رؤوسهم. وليستغرق الخيال في القبح إلى أقصاه، ويتخيله في أبشع ما يكون في خيال الْمُخَاطَب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنهم آكلون منها رغماً عنهم، فليس لهم الخيار في ذلك، إذ قال تعالى ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فإنكم ستأكلون منها حتى تمتلئ بطونكم من هذه الشجرة، ليحصل لكم العذاب من داخل أجسامكم، كما هي النار لكم من خارج أجسادكم. بل وأيضاً ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ وكذلك فإنكم شاربون على هذا الطعام الذي تنشوي به بطونكم، ماء شديد الحرارة من شدة غليانه. بل سيكون شربكم أيها المكذبين هو شرب متلهف عليه ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ فشربكم لذلك الماء كشرب الإبل التي عطشت عطشاً شديداً، فتشربون شرباً متتابعاً من غير توقف. أي تتجرعونه بشدة، فيزداد عذابكم به. ثم يُقال لهم على وجه التقريع واللوم والتحسيف ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ فهذا نزلكم ومقامكم ومسكنكم الذي لا تخرجون منه، والذي هو ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ اليوم الذي يَدين الله تعالى فيه الخلائق بما اجترحوا واكتسبوا في حياتهم الدنيا، فهو يوم الحساب والجزاء. ومع أن هذا بيان لما سيكون عليه أهل الشمال الذين هم أهل النار إلا أن فيه ترهيب، ووعظ للناس بما سيكون لمن أصر على الكفر والحنث العظيم. وبما يفيد الإنذار من الله تعالى لعباده، بأن يَقوا أنفسهم ذلك العذاب، باتباع رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. مما يدل على رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويرشدهم، ويبين لهم طريق الحق والهدى ليتبعوه، ويبين لهم طريق الضلال وما يؤدي إليه ليجتنبوه، ليتحقق في العباد عدل الجزاء من رب العباد سبحانه وتعالى.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

بعد بيان الله تبارك وتعالى لحال أهل الشمال، الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء، المكذبين بالجنة والنار، تسرد سورة الواقعة عدداً من البراهين والأدلة التي تثير العقل نحو الشواهد التي تبين عظيم قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وتكوينه، وتناسله العجيب. فيقول الله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ نحن الذين تولينا خلقكم وإيجادكم أيها المكذبون المنكرون للبعث. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ حصر خلقهم في الله تبارك وتعالى، وأنكم لم تخلقوا أنفسكم، إذ لا يقول بذلك أحد، فانحصر فعل الخلق للرب عَزَّ في علاه. فالذي خلقكم ابتداء لا يمكن له أن يعجز عن إعادتكم مرة أخرى. فيشمل هذا البيان أيضاً من ينكر البعث بعد الممات، ولا ينكر خلق الله تعالى للعباد. فيكون اعترافهم هذا مناقضاً لإنكارهم البعث بمنزلة العدم للإنكار، فكيف تنفون عن الذي خلق وأنشأ ابتداء القدرة على إعادة ما خلق؟ ومن ذلك إعادة الحياة للأرض بعد موتها. وكذلك يفيد: فكيف تشركون العاجز من المخلوقات مع القادر العزيز، وتخترعون الشريك؟ وقد أسند سبحانه وتعالى الخلق إليه بضمير التفخيم والتعظيم ﴿ نَحْنُ ﴾ لإظهار عظمة المتكلم، الذي يكلمهم، بأنه العظيم الذي لا ينُكرُ كلامَه وما يخبر به ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ فكيف تنكرون على من خلقكم قدرته على البعث ؟ حيث استنهض سبحانه وتعالى عقولهم للتدبر والتفكر بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ فَهَلَّا صدقتم بالبعث بناءً على خلقكم وإيجادكم؟ فَهَلاَّ تصدقون ما قاله لكم ربكم: بأنكم تُبعثون؟ فأبطل سبحانه وتعالى نفيهم للبعث بإعادتهم إلى عظمة القدرة في الإيجاد لهم، بما هم عليه في أحسن تقويم.

ثم ينتقل بهم سبحانه وتعالى في استثارة عقولهم، وإقامة الحجة عليهم إلى ما يكون من تسخيره في إخراج السائل المنوي منهم عند الجماع، والذي يتكون منه الجنين. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾

أتدبرتم وتأملتم ما يكون منكم من السائل المنوي الذي جعله الله تعالى سبباً للخلق ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ هل أنتم الذين خلقتم هذا السائل من المني بقدرتكم؟ ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ أو نحن الذين خلقناه فيكم بالأسباب والدواعي التي تجعله يخرج منكم، فيحصل الحمل في بطن الأم بالجنين؟ سؤال يقررهم بالحقيقة التي يعرفها كل إنسان. سؤال يستثير العلم وحقائقه ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ لتجتمع فيه رؤية العين، مع رؤية البصيرة في وقت واحد، بما يشد الانتباه لما بعده من بيان عما يخص هذا الإمناء ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ هل أنتم خلقتموه؟ ولا أحد من الناس يقول بأنه هو الذي يخلق ما يخرج منه من المني؟ إذاً فمن هو الذي خلقه؟ أليس هو الله ربكم؟ فيتقرر عند كل أحد أنه الله تعالى وليس غيره. ثم يحصرهم بطريقة السؤال التقريري الذي لا حياد عنه أبداً. ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ أم أن الله تعالى هو الخالق له؟ وقد أورد سبحانه وتعالى هذا الحصر بصيغة السؤال ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ ليكبتهم في إجابة واحدة، وهي أن الله تعالى هو الخالق له. فإذاً كيف تؤمنون وتصدقون به، ولا تصدقون بما أخبركم به عن البعث والنشور، والحساب والجزاء؟ فهو أسلوب في غاية القوة من المحاكمة للعقول بالحق والشواهد. مما يوجب التصديق، وأن من استمر في تكذيبه فهو معاند، وقد قامت عليه الحجة الدامغة لإنكاره. كما يُعَلِّمُ هذا الأسلوب المؤمن كيف يحاور ويناقش، ويقيم الحجة.

ثم ينقلهم سبحانه وتعالى إلى حقيقة الموت، وتقدير الآجال بأنها له وحده سبحانه وتعالى ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فربكم وحده لا شريك له هو الذي قدر التفاوت بينكم في الآجال، فقضينا بالموت آجالكم، وانتهاء وجودكم في الحياة الدنيا. فليس ذلك الشأن والأمر لأحد غيره عَزَّ في علاه. وبالتالي كيف تشركون معه غيره، وتنكرون البعث، وأنتم لا تستطيعون تحديد آجال أنفسكم التي هي منكم، ولا تستطيع معبوداتكم التي أشركتموها مع ربكم أن تغير أو تمنع أو تعدل شيئاً من ذلك.

ليشمل تقرير الله تعالى لهم بأن الآجال له وحده لا شريك له، حتى أنها ليست بالتقصي والتسلسل بحسب الأعمار، لأن دلالة ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ تعطي التقدير لكل أحد بما قدره الله تعالى له. فيتخطف الموتُ الناسَ بتقدير منه عَزَّ في علاه. فمنهم من يموت في بطن أمه، ومنهم بعد ولادته، وفي طفولته، والبعض في صغره، والبعض في شبابه، ومنهم من يتوفاه الله تعالى في شيخوخته، ومنهم من يعود إلى أرذل العمر. ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ولسنا بمغلوبين، ولا عاجزين ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا

﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ فليس ربكم بعاجز عن أن يأتي بخلق مثلكم وبدلاً منكم. قال الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ونُبَدِّلَكم عما تعلمون من أنفسكم، فيما لا تعلمون منها من الصور[١] قال الزجاج رحمه الله تعالى: إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم، لا يسبقنا سابق، ولا يفوتنا ذلك. وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: لسنا مغلوبين على أن نستبدل بكم أمثالكم[٢] ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ونخلقكم في أي خلق شئنا من الهيئة وغيرها. وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وتعالى، وبيان لكمال تفضله على عباده بأنه خلقهم في أحسن تقويم، وأنه قادر على إعادة خلقهم على غير ذلك من الهيئة والصورة التي يريدها تبارك وتعالى. ففي ذلك حث لكل أحد من الناس أن يحمد الله تعالى، وأن يتفكر في نفسه، وما أنعم الله تعالى به عليه من جمال الخِلْقَة، فيحمد الله عَزَّ وجل، ويطيعه، بمتابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن قررهم سبحانه وتعالى بما يعرفون من أنه عَزَّ وجل هو خالقهم من المني الذي يُمنى، والتي تمثل النشأة الأولى، يُسنِد بعد ذلك على هذه المعرفة وجوب إعادة التفكير بما يحقق الإيمان. ليقررهم بإعادة الخلق مرة أخرى. فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولقد حصل لكم العلم بالنشأة الأولى، التي هي ابتداء خلقكم من نطفة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلا تستعيدون علمكم هذا الذي علمتموه، فتعلموا به عظيم قدرة ربكم سبحانه وتعالى على البعث بعد الموت؟ سؤال يستثير الفكر بالحقائق والشواهد التي لا ينكرها عاقل، فإن عظمة قدرة ربكم متجلية في خلقكم الأول، من مني، فعلقة، إلى جميع الأطوار التي مررتم بها، عبر المراحل المتتالية، حتى أصبحتم مكلفين بطاعة ربكم. فهلا تذكرتم هذا الشأن من الخلقة، فآمنتم بما أخبرناكم به من البعث والحساب والجزاء بعد الموت؟

ومن جميل البيان ودقته أنه استهل المطلوب منهم بحرف التحضيض ﴿فَلَوْلَا﴾ الذي يحثهم على استعادة الحقائق التي تجبرهم على الإيمان والتصديق بما جاءهم به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وكذلك هو تأنيب على عدم التصديق والامتثال بالشكر والطاعة والاتباع لما جاءهم من الحق مع رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فكما هو حث فهو أيضاً عتاب ولوم على ما حصل منهم، بأنه كان خلاف ما يجب عليهم.

ثم ينتقل بهم الحوار القرآني إلى ما يتعايشون معه، ويتنعمون به من أرزاق الإنبات من الزروع المتنوعة، وما فيها من العبر الدالة على عظمة إرادته سبحانه وتعالى، وكمال قدرته، وعظيم إنعامه. ووجوب توحيده، وإفراده بالعبادة، واتباع وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٦/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٩/٧)

أشاهدتم بأعينكم، وبصائركم ﴿مَا تَحۡرُثُونَ﴾ أي: ما تصنعونه وتعملونه في الأرض من إثارة مكوناتها، لتضعوا فيها البذور؟ ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ هل أنتم أنبتم الحياة في تلك البذور، فأصبحت زروعاً؟ ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أم أن ربكم هو الذي أخرج الزرع من الحبوب الميتة التي لا حياة فيها، فأعاد لها الحياة بعد موتها؟ سؤال يبين لهم ولكل أحد عظمة القدرة الربانية الدالة على أن الله عَزَّ وجل لا يعجزه البعث العباد بعد الموت. فكما أحيا البذور الميتة بحياة الإنبات والاخضرار، فكذلك يبعثكم سبحانه وتعالى بعد موتكم أحياء. فأين موطن العجز؟ إلا أنه في مخيلتكم القاصرة، وإصراركم على الإنكار. وهو كذلك سؤال يبين محدودية الأسباب، ومحدودية التكليف في طلب الرزق، الذي لم يتجاوز حرث الأرض، ووضع البذور فيها فقط. ولكن حالة الإنبات، وإخراج الزروع له وحده سبحانه وتعالى. ليفيد كذلك بيان وإثبات عجز قدرة الإنسان التي لا تتجاوز وضع البذور، ولكن قدرة الله تعالى أجل وأعظم، فهو الذي أعاد إحياء البذور، وجعل فيها الحياة، فأصبحت مخضرة، بانتعاش الحياة فيها، ثم أصبحتم منها تأكلون. ليظهر لكم كذلك فضل الإطعام والإنعام عليكم. وعظمة القدرة الدالة على أن الله عَزَّ وجل لا يعجزه البعث لكم بعد الموت. وكذلك ما تدل عليه من أن الله ربكم لا شريك له، فوحدوه أطيعوا واتبعوا رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان وقوة الحجة أن بدأ التوجيه الكريم بسؤال تقريري لما يشاهده المخاطبون من عباده ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ لشد الذهن والانتباه والحس إلى ما يقومون به من عمل، من أجل تحصيل منافع الرزق. ليتبين محدودية قدراتهم، وعظمة قدرته جَلَّ في علاه، التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. فهو سؤال إجابته محصورة في أمرين: أحدهما ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ فلا أحد يقول بأنه هو الذي يُخرج الزرع من الحبوب التي بذرها في الأرض. فانتفى الأول تماماً باعتراف المخاطَب. ولم يبق إلا الحصر في أنه لله تعالى، والذي أورد الإجابة عليه سبحانه وتعالى بأسلوب السؤال التقريري ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أم نحن الذين أعدنا الحياة للحبوب من البذور بعد موتها، فدبت فيها الحياة بعد أن كانت لا حياة فيها؟ فالجواب المتحتم هو: نعم يا ربنا وخالقنا أنت الذي زرعتها بإنبات تلك البذور، ولم تكن لنا يد ولا قدرة في ذلك أبداً. وهذا هو طريقة السبر والتقسيم. الذي يذهب بالْمُخَاطَب إلى الحقيقة، والاعتراف بها، وليظهر به الاستدلال العظيم على كمال قدرة الله تعالى في بعث الناس بعد الموت، كما أحيا الحبوب بعد الموت. فالسبر هو مسلك لتقرير المخاطبين بالحقائق، من خلال حصر الأوصاف التي ممكن أن تكون في عدد معين، ثم يُبطل الأوصاف الْمُستبعدة، ليقرر الوصف والجواب وحصره في الحقيقة.

وجملة ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَبين، فيلجئهم البيان إلى الحقية والبرهان والدليل المحسوس الذي يعايشه ويشاهده الْمُخَاطَب بعينه

وبصيرته. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين، ليشمل كل منكر. ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل أولئك المكذبين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن سيأتي من بعدهم، حتى يوم القيامة. وإلى أن يُفنِي اللهُ تعالى العباد بقيام الساعة، وهو استدعاء للحقائق الكونية، وشد الانتباه إلى ما هو متقرر في فطرة العباد الصحيحة بأن الله تعالى هو وحده، لا غيره الذي ينبت الزروع من حبوب ميتة، لا حياة فيها. فهو دليل على صدق ما أخبر به سبحانه وتعالى بالبعث والحساب والجزاء. وإثبات عظمة هذا القرآن الكريم، وأنه مُنَزَّلٌ من الله عَزَّ في علاه.

ثم يتجه بهم البيان الكريم ويقودهم إلى نوع آخر من كمال القدرة الربانية التي تستوجب الإذعان لله تعالى والخوف منه، ومن بطشه بمن كذب وأنكر وكفر. فقال تعالى ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ولو أردنا أن نهلك هذا الزرع بعد طلوعه وينعه، لأهلكناه وجعلناه هشيماً متكسراً ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي: تتعجبون فيما نزل وحل بكم في زروعكم. فيظل حالكم حال المتفرج، الذي لا حيلة له، فيحصل لكم الأسى، والندامة، واللوم لأنفسكم، والتعجب مما حصل له، وبناء على ذلك الحدث تتلاومون بينكم أسأً وحسرة. أي: لهالكم الأمر. ولكن من رحمته بكم أنه يحميه لكم، لتنعموا أنتم وأنعامكم به. فهو تذكير بحفظ النعمة، وتذكير بكمال القدرة، وتذكير لهم بكمال عجزهم. وهذا من بلاغة البيان في إقامة الحجة بالدليل والبرهان. فسبحان من أثار العقول ببيانه وعظيم خطابه سبحانه وتعالى.

ثم يخبرهم سبحانه وتعالى بما سيكون منهم فيما لو أصبحت زروعهم حطاماً، فقال تعالى: بأنكم ستقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي: ذهب زرعنا، وغرمناه، فأفادت دلالة ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ قوة التحسر والتندم مما أصابهم من ذهاب ما تعبوا في حرثه، ثم يزداد التوجع بالتأكيد على ذلك ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ لقد انحرمنا مما كنا نرجو ونأمل ونطلب. وفي هذا زيادة تأكيد للتندم، والذي انتقلوا به بحرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي يفيد الانتقال من معنى إلى آخر، هو أهم وأنكأ عليهم من الأول. بحسب السياق. أي: قد حُرمنا من نعمته التي كنا نأملها.

ليعطي بذلك الإحالة إلى التدبر الذي يقود إلى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد فأطيعوا ربكم حتى لا تنقضي الحياة، وتنصرم بكم الآجال، وحينها تشعرون بما هو أكبر وأطم من الحسرة والندامة والغرم الذي لا علاج له، فَتُحْرَمُون الجنة، وتعيشون في الحطمة من نار جهنم.

ثم ينتقل بهم البيان الكريم إلى آية كونية عظيمة أخرى، فقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ هل تأملتم الماء الذي ترتون منه ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ هل أنتم أنزلتم هذا الماء ﴿ ءَأَنتُمْ

﴿أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: من السحب. أم أن الله تعالى أنزله؟ سؤال يحصرهم في أحد إجابتين: الأولى: هل أنتم أنزلتموه من السحب التي في السماء؟ والجواب من كل عاقل هو: لا. لم نكن نحن الْمُكَوِّنُون له في السحاب، ولا بقدرتنا أنزلناه من المزن العالية. فينحصر الحق إذاً في الجواب على الشطر الثاني من السؤال ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أم أن ربكم هو الذي أنزل الماء من السحاب؟ سؤال تقريري، يقررهم بأن يقولوا: بل أنت يا رب الذي أنزلت علينا الماء الذي نشربه، ونتنعم به. إذاً فما الذي يمنعكم من شكر ربكم بطاعته واتباع دينه، وما يلزم من الإيمان بكل ما جاءكم عن ربكم، ومنه البعث بعد الموت، والحساب والجزاء؟ سؤال يستثير العقل نحو الوصول إلى الحقيقة والحق. مما يفيد أن منهج الله تعالى في دعوة عباده قائم على معالجة الجهل بأحسن الأساليب، والتي منها إثارة الدلائل الكونية على كمال قدرته جَلَّ جلاله. وبيان ما فيها من الحقائق التي تقرر وجوب الإيمان بالغيب. فإن المشاهد الكونية، وتدبير أمرها ومسارها يُلزم الإيمان بكل ما ورد من أمر الغيب. وهذا يعطي الداعية والمعلم والناصح المهارة في النصح والتعليم، والدعوة إلى الله تعالى بالحقائق والبراهين. فالقرآن العظيم كتاب كريم في عطائه. فاسأل الله تعالى أن ينفعنا وينفع العباد به، إنه سميع الدعاء سبحانه وتعالى.

ثم يخبر سبحانه عن عظيم قدرته، وعظيم إنعامه، فقال تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فلو أردنا لجعلنا ذلك الماء ﴿أُجَاجًا﴾ أي: ملحاً، شديد الملوحة، فحرمناكم نعمة الانتفاع به شرباً وسقياً لبهائمكم وزروعكم، وقضاء حاجاتكم الأخرى. فيظل حالكم هو حال المتفرج، الذي لا حيلة له، فيحصل لكم الألم والمشقة، ولكن من رحمة ربكم بكم أنه جعله ماء سائغاً، حلواً، زلالاً، لتنعموا وتمتعوا أنتم وأنعامكم به. فهو تذكير بحفظ النعمة، وتذكير بكمال القدرة، وتذكير لهم بكمال عجزهم فيما لو كان مالحاً. وهذا من كمال الإنعام، ومن بلاغة البيان، وعظمة القرآن، وجلال كلام الرحمن في إقامة الحجة بالدليل والبرهان. فسبحان من أثار العقول ببيانه وعظيم خطابه سبحانه وتعالى.

ثم يحثهم تبارك وتعالى على شكره عَزَّ وجل بالقول وبالمتابعة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلا شكرتم ربكم سبحانه وتعالى بما أنعم به عليكم؟ فتشكرونه بقلوبكم وألسنتكم، وبمتابعة رسوله عليه الصلاة والسلام. لأن الشكر قولاً واعتقاداً واتباعاً. وهو حث لهم من خلال بيان البديل الذي لم يختاره لهم سبحانه وتعالى، وهو الماء المالح الأجاج، والزروع المتصرمة المتهالكة، بما يدل على عظيم إنعامه وكرمه جَلَّ جلاله. وبالتالي كيف لا تشكرون ربكم المنعم عليكم بفيض عطائه؟ فليس من العقل أن يكفر العاقل بمن أنعم عليه وهو الله سبحانه وتعالى، وأجزل له في العطاء، واختار له الأحسن والأفضل والأكرم. وهو بيان يستثير الأذهان إلى مجالات إنعام الله تعالى، وتعددها، مع بيان النقيض فيما لو حصل، وبما يبين أنه هو الذي دبر التوافق بين حاجات العباد، وبين عظيم العطاء، مما سخره لهم جَلَّ جلاله. فالأضداد تبين

عظمة وجلالة الإنعام، كالمرض، إذ يبين نعمة العافية التي تستوجب الشكر، والكفر الذي يبين نعمة الإسلام. فنحمد الله تعالى على جميع ما أنعم به علينا من النعم التي لا تُعد، ولا تُحصى. اللهم أعنا ووفقنا لذكرك وشكرك وحُسن عبادتك، بمنك وفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ومن جميل البيان ودقته أنه استهل المطلوب منهم بحرف التحضيض ﴿فَلَوۡلَا﴾ الذي يحثهم على شكر ربهم ﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ ويؤنبهم على عدم الشكر بالطاعة والامتثال لما جاءهم من الحق مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهو أيضاً عتاب ولوم على ما حصل منهم، من أنه كان خلاف ما يجب عليهم.

ثم ينتقل بهم البيان الكريم إلى آية كونية عظيمة أخرى، فقال تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ هل تأملتم النار التي توقدونها، بإشعالها وإيقادها. فبدأ الخطاب الكريم والتوجيه العظيم إلى شعلة النار حين ابتداء تكونها وتعاظمها في الموقد، من الحطب وغيره. ثم يتدرج بالمخاطَبين إلى المطلوب من هذا اللفت والكلام عن النار، فيقول عَزَّ وجل ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ هل أنتم أنشأتم شجرة هذه الأخشاب التي توقدونها ناراً لكم؟ ثم حصر الجواب في أمرين: الأول ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ هل أنتم الذين خلقتم شجرتها ابتداء. وفي المراد بشجرتها ثلاثة أقوال: أحدهما: أنها الحديد. والثاني: أنها الشجرة التي تُتخذ منها الزنود، وهو خشب يُحَكُّ بعضه ببعض، فتخرج منه النار. والثالث: أن شجرتها أصلها[١] وهذا من دقائق البيان وقوة بلاغته أن استوعب اللفظ والسياق الدلالات التي استوعبت المقصود بكامله. فاستوعبت الخشب حال الوقود، وحال كونه زنداً للنار، وكذلك الحديد الذي يكون زنداً لإشعال النار. وكذلك احتكاك الحجر، الذي يخرج به شرارة النار. وهذا من إعجاز البيان الذي يبين ويظهر عظمة القرآن، وأنه كلام الرحمن سبحانه وتعالى.

ولا أحد يقول بأنه هو الذي أنشأ أصلها. فانتفى الأول تماماً، باعتراف المخاطَبين. ولم يبق إلا الحصر في أن الذي أنشأها هو لله عَزَّ وجل ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ أم أن ربكم هو الذي أنشأ النار لكم؟ سؤال تقريري، يقررهم بأن يقولوا: نعم أنت يا رب الذي أنشأت لنا نعمة النار وأصلها. فإن لم تكونوا أنتم الذين أنشأتم أصلها، فإن ربكم هو الذي أنعم عليكم بإنشاء أصلها حتى توقدون نيرانكم، وتقضون حوائجكم بها. وهذه طريقة السبر والتقسيم. الذي يذهب بالْمُخَاطَب إلى الحقيقة، والاعتراف بها، وليظهر بذلك عظيم الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى في بعث الناس بعد الموت، كما أحيا الحبوب بعد الموت. إذاً فما الذي يمنعكم من شكر ربكم بطاعته واتباع دينه، وما يلزم من الإيمان بكل ما جاءكم عن ربكم، ومنه البعث بعد الموت، والحساب والجزاء؟

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩١/٧)

سؤال يستثير العقل نحو الوصول إلى الحقيقة والحق. وبما يعلم المؤمنين كيف يقيمون الحجة، لترتقي بذلك عقولهم. مما يدل ويبين أن علم القرآن علم لا يضاهيه علم. في تربية العقل، وتنميته، وتصحيح مساره، وتعليمه كيف يكون حكيماً، وعالماً، وهادياً، ومعلماً، ومقيماً للحجة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بفوائد دلالات النار، فقال عَزَّ وجل﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ نحن لا غيرنا جعلنا لكم في النار غايتين عظيمتين: الأولى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ تذكر الإنسان بنار جهنم، لتكون واعظة للإنسان كلما أوقدها أو رآها. فاتعظوا بها، فإنها موعظة لكم من نار جهنم، لتدفعكم رؤيتها إلى طاعته سبحانه وتعالى، واجتناب المعاصي. والغاية الثانية: ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ أي: منفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي: للمسافرين. قال الضحاك رحمه الله تعالى: أي: منفعة للمسافرين. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى ما يفيد ويعني: أن المسافرين يُسَمَّون بالمقوين، لنزولهم القَوَى، وهو القفر. وهي الأرض التي لا شيء فيها. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: أي: للمستمتعين بها من الناس أجمعين، في الطبخ والخبز، والاصطلاء، والاستضاءة[١] وخلاصة القول أنه يتحقق بها ما يستمتع به الإنسان في قضاء حوائجه، وخاصة المسافر. وفي تخصيص المسافر لإظهار قوة حاجته إلى النار وهو بين الصحاري والقفار.

وبعد أن بين وأوضح تبارك وتعالى عظيم إنعامه الذي يتبين منه عظيم قدرته، وجلال تفضله، وكريم إحسانه سبحانه وتعالى، بما يستوجب توحيده وطاعته، والإيمان بكل ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يتوجه الخطاب بعد ذلك إلى الأمر بتنزيهه عَزَّ وجل عما لا يليق بعظمته وجلاله، وعظيم إنعامه، وعظمة آياته في خلقه وتدبيره. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فنزه ربك أيها الإنسان، بتعظيمه، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بعظمته التي أظهرها لكم من الإنعام بالزروع، والمياه الزلال، وخلق لكم النار التي تُوقدون وتقضون بها حوائجكم. وأخبركم بأضدادها، لتدركوا فضل إنعامه عليكم.

فإن ربكم عظيم ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: سبح صاحب العظمة والجلال التي ليست لأحد من خلقه. فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به. ومن ذلك قول: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر. وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم. أي: والخطاب والأمر لم يعين أحداً بعينه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ليشمل جميع المخَاطَبين، فيأمرهم بكثرة التسبيح. وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٤/١٧)

تعالى عما لا يليق به، من إضافة ما ليس له في اسمائه أو صفاته، أو من ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[١] فالتسبيح هو تنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تعظيم لربنا عَزَّ وجل. فإنه سبحانه وتعالى مقدس ومنزه ومطهر في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي يناسب ألوهيته وربوبيته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه وغير ذلك مما لا يليق به عَزَّ في علاه.

وينطلق التسبيح من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقد العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويُصدقه القول بلهج اللسان بالتقديس من المحامد والثناء على لله رب العالمين، وكذلك بالفعل والتطبيق بالعمل والامتثال لله عَزَّ في علاه، مع البعد عن الشرك والرياء، ونحوه.

ومن بديع البيان أن الأمر بالتسبيح ورد بعد أن أقام الحجة الناصعة التي تبين للإنسان عظيم قدرته جَلَّ جلاله، إذ خلق الزروع بالإنبات من الحبوب التي لا حياة فيها، ولو شاء لجعلها هشيماً. وكذلك أنزل الماء الزلال من السحاب، ولو شاء لجعله أجاجاً من كثرة ملحه. وخلق النار لتحقيق وتيسير مصالح العباد. فاستوجب ذلك تعظيم الله تعالى. كما أن في ذلك بيان بأن ما نسبه المشركون لربهم من الأنداد وغيرها باطل، ولا يليق بجلاله وعظمته عَزَّ في علاه.

وقد ورد الأمر بالتسبيح على إطلاقه دون تقييده بوقت، ولا صفة وهيئة محددة، حيث قال تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لتستوعب جميع الدلالات. إذ تأتي بمعنى: صَلِّ لله سبحانه وتعالى. ونزهه بلسانك، واعتقادك، وبأفعالك. فجميعها متوافقة، ولا تعارض بينها، بما يبين أهمية وعظمة مداومة التسبيح. فلا يزال اللسان رطباً بذكره عَزَّ وجل. فأنه قوة وعزة للمؤمن، وأن الله تعالى يدفع به الشرور، ويجلب به الخير.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(١) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

بعد بيانه سبحانه لأقسام العباد الثلاثة التي ستكون يوم القيامة، وما تلاه من البيان لعظيم لإنعامه، وعظيم قدرته فيما أنعم به على العباد، يخبر بعد ذلك جَلَّ شأنه بعظمة القرآن العظيم، ومنزلته الرفيعة، التي ينفي بها ما نسبه أعداء الدين للقرآن، من أنه سحر، وأنه شعر، وأنه من أساطير الأولين، ونحو ذلك من الأكاذيب الباطلة. وقد استهل البيان في تجلية ذلك بالقسم العظيم من رب العالمين، فقال تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ فقد أقسم الله تبارك وتعالى بمواقع النجوم في السماء. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله عَزَّ وجل، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته[١] وقد ورد في دلالتها تنوعاً لمعانيها ومقاصدها[٢] باعتبار ﴿ فَلَآ ﴾ التي دخلت على القسم: ومما جاء في ذلك: أنها تفيد التوكيد وتعظيم المُقسَم به. التي هي النجوم، وكذلك تعظيم الذي أقسم عليه وهو القرآن العظيم. وقيل: أنها ترجع إلى ما تقدم وسبق من بيان حال المكذبين الذين هم أصحاب الشمال. لإفادة نفي ما قالوه من الافتراء، والتكذيب لهم، ومن ذلك افتراءهم بأن القرآن شعر وسحر، وكهانة. أي: فلا تنكروا ولا تجحدوا ولا تكذبوا ما بيناه لكم من جليل النعم، وما تضمنته من الحجج. وأن هذا القرآن كلام الله حق لا ريب فيه. فاستوفت دلالتها التأكيد والنفي، وتعظيم المقسوم به.

وقد أقسم سبحانه بعظمة مواقع النجوم ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي: مساقط النجوم في السماء، ومغاربها، ومنازلها، وكثرة وتنوع مواقعها، وما تجلى في ذلك من عظيم القدرة، وعظيم جمالها، وانتشارها بتلك المواقع التي لها في السماء. ففي ذلك لفت الانتباه للعلو، الذي يتناسب مع علو وعظمة القرآن العظيم، ومنزلته الرفيعة، وكذلك عظيم مصدره بأنه من السماء، أي: مِن عند الله تعالى. كما أن في ذلك لفت الانتباه لعظمة مواقع النجوم التي يتأكد بها أن الله تعالى على كل شيء قدير. وهذا من عظيم البيان في تناسق دلالاته التي تُظهر عظيم بلاغته، وترابط نسقه، الذي يتأكد به الإعجاز له من كل وجه. فسبحان من أظهر إعجازه في كلامه كما أظهره في مخلوقاته وآياته الكونية والتي منها مواقع النجوم.

ثم يُمجد ويُعَظم سبحانه وتعالى ما أقسم به، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ إن هذا القسم الذي أقسمنا به إنه لقسم عظيم لو أدركتم معانيه ودلالاتها التي حوته وأظهرته لكم، بما أظهرته من عظيم خلق ربكم، وعظيم تدبيره، ومن ذلك مساقط النجوم في السماء، ومغاربها، ومنازلها، وكثرة مواقعها،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٩/٤)

(٢) ابن جرير الطبري، (٢٢/ ٣٥٨-٣٥٩) ابن كثير (٣١٩/٤) القرطبي (١٤٤/١٧) ابن الجوزي (٢٩٢/٧)

ومنافعها لكم، التي منها معرفتكم بها الأوقات والمواسم والاتجاهات في الليل المظلم. وما تجلى في ذلك من عظيم القدرة، وعظيم جمالها، وانتشارها بتلك المواقع التي عينها ربكم لها في السماء.

فهو قسم عظيم لمقسوم عليه عظيم كذلك، فدلالة القسم، والمقسوم به تدل على عظمة ورفعة ومنزلة الْمُقْسَم عليه. فقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ إن هذا الذي أنزله الله تعالى على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فيتلوه عليكم ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ إنه لقرآن اتصف بأنه ﴿ كَرِيمٞ ﴾ أي: مُكرَّم من عند ربكم لكم أيها العباد، مُكرَّم لأنه كلام الله تعالى، ومُكرَّم بعلو سنده، فهو من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام. وهو مُكرَّم بما تضمنه واحتوى عليه من الهدى ودين الحق، والأحكام والتشريع، والمواعظ، والقصص الحق، والترغيب والترهيب، والحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وهو مُكرَّم حتى في سياقه وقوة بلاغته وبيانه، وهو مُكرَّم لأنه عظيم النفع والفضل. فيزودكم بالعلم والتشريع والأحكام والأخلاق والآداب الشرعية، ويزودكم بما يجب عليكم من الأعمال والأقوال، من الحلال والحرام، وينمي عقولكم، ويصحح أفكاركم وعقائدكم، ويهدي قلوبكم، ويعظ نفوسكم، ويشفي صدوركم، ويزيل ما في الأجسام من العلل والأمراض والأسقام. فهو كتاب كريم فيما يسديه ويعطيه ويقدمه لمن نهل منه، واعتنى به. وهو كتاب كريم في ثواب تلاوته، حتى أن الحرف منه بحسنة، ويرتقي قارؤه منازل عالية في الجنان، كما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه يُقال القارئ القرآن (اقرأ ورتل كما كنت تُرتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)[١] مما يبين عظمة وكرامة وكرم هذا الكتاب العظيم. اللهم لك الحمد على نعمة القرآن العظيم، وعلى جميع ما أنعمت به علينا يا رب العالمين. اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا رب العالمين.

ومن كرامة هذا القرآن العظيم أن الله تعالى قد صانه من كل ما لا يليق بكرامته ومنزلته الرفيعة. فقال الله تعالى ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ فهو في كتاب ﴿ مَّكۡنُونٖ ﴾ أي: مصون عند ربكم، لا يمسه ولا يأتيه ما لا يليق به، ثم عين سبحانه وتعالى صفات من يمسه، فقال تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ فلا يلمسه إلا من كان طاهراً، وذلك لعظمته. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير وغيرهم: يعني: الملائكة. وبعد أن ذكر ابن جرير الأقوال: قال رحمه الله تعالى: والصواب من القول من ذلك عندنا: أن الله جَلَّ ثناؤه أخبر أنه لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون. فعمّ بخبره المطهرون، ولم يخصص بعضاً دون بعض. فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين، وكل من كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثنى[٢] فهم الذين في السماء، فقد

(١) أبو داود، سنن أبي داود. برقم (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) وأحمد (٦٧٩٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٣٦٤)

طهرهم الله تعالى من جميع ما تلزمه الطهارة. فهم عباد الله تعالى المتصفون بكمال الطاعة لله تعالى، وكمال الطهارة، وتوحيدهم لربهم جَلَّ جلاله.

ثم يزداد البيان الكريم تعليلاً وبياناً لعظمة هذا القرآن الكريم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإن هذا القرآن المتصف بالكرامة والتكريم، وكرم وكريم عطائه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو مُنَزَّل من رب العوالم كلها، مما تشاهدونه، وما لا تشاهدون مما غاب عنكم. فإن رب العالمين هو الذي أنزله عليكم، بعلو سنده، من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بما أوحاه به عليه من خلال الملَك جبريل عليه السلام. بما يفيد فكيف تنكرونه، وتكذبون به؟ وكيف يليق بهذا الإنعام أن ترموه بالشعر والسحر والكهانة؟ وأنتم تعلمون علم اليقين بأنه من ربكم رب العالمين. ففي هذا البيان الكريم العظيم إظهار وتزكية وإثبات لحقيقة مصدر القرآن الكريم، بأنه من رب العالمين، مع عتاب، وتهديد لمن أنكر القرآن الكريم، ولمن مسه ونعته بسوء، فإن الله تعالى سينتقم منه، ويذله ويهينه. كما يفيد ذلك وجوب تعظيم كتاب الله القرآن من كل وجه.

ثم بعد الإثبات والتقرير للقرآن الكريم بأنه كتاب من عند الله العزيز الحكيم، وأنه لا يمسه إلا المطهرون، وأنه في كتاب مكنون، يعاتب من أنكر كلام رب العالمين، فقال تعالى ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ أبهذا القرآن الذي أنبأتكم وأخبرتكم به، وتفضلت به عليكم تُمَالِئُون وتلينون القول للمكذبين به. والْمُدْهِن الذي ظاهره خلاف باطنه. أي: توافقون لهم على التكذيب به، والإنكار له. فهو سؤال تقريع واستنكار لمن كذب بالقرآن الكريم، وجحده، على ما فيه من الدلالات والحجج والبينات بأنه كتاب رب العالمين، نزل به جبريل على قلب الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد بدأ اللوم والتقريع لمن كذب به بصيغة السؤال ﴿ أَفَبِهَٰذَا ﴾ سؤال يحمل تعيينه وتحديده تحديداً دقيقاً ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ الذي هو القرآن الكريم. أبعد أن أنزلناه رحمة بكم، مبينين ومُظهرين عظمته ﴿ أَنتُم ﴾ أيها المكذبون به ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ من المداهنة، التي تفيد التكذيب به مداهنة منكم لغيركم، المنافي لحقيقة ما تعرفون من أنه كتاب رب العالمين. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والْمُدْهِن الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبهه بالدهن في سهولة ظاهره. وقال مقاتل وقتادة: مدهنون كافرون[١] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس، أنتم تُلينون القول للمكذبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به، والكفر[٢] فشملت المداهنة بذلك التكذيب والجحود المخالف لما يعرفون. لأن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٧/٢٢)

المداهن هو الذي عَرف الحق، ولكنه انحرف عنه مجاملة ومداراة ومداهنة لغيره. وفي هذا كشف لحقائقهم، بما يُوجب عليهم الخوف والرهبة، والاستسلام لله تعالى.

ثم بين تبارك وتعالى مشهد تكذيبهم بتلك المداهنة، فقال تعالى ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ وتجعلون ما رزقكم ربكم بهذا القرآن وهذا الدين، وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ تجحدون هذه النعمة العظيمة. فتعرفون نعمة الله تعالى عليكم ثم تنكرونها مداهنة لغيركم. فجعلتم شكر النعمة جحوداً. فتجعلون حظكم من القرآن تكذيبكم به. وفي هذا كشف وتعرية لحقائق المكذبين، وتجلية لحقيقة تكذيبهم. بما يفيد أن لا تغتروا بذلك، فعليكم بالعود للحقيقة التي تعرفونها، والتي هي في عقولكم، فصدقوا وآمنوا خيراً لكم. مما يبين رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين ويكشف لهم الحقائق، وينير لهم طريق الهداية والحق، ليفوزوا بالجنان والنعيم المقيم. وهذا من عدله عَزَّ وجل، حتى إذا أخذ المكذب بما يستحق من العذاب كان عين العدل فيهم، من الكفرة المجرمين.

ثم ينتقل سبحانه وتعالى بالْمُخَاطَبين إلى موعظة عظيمة، وهو تذكيرهم بحالهم وانقطاع قدرتهم حين يوافيهم الموت، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴾ فهلَّا إذا بلغت الروح الحلق حين الاحتضار ﴿ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ وأنتم تنظرون إلى هذا الذي يحتضر، وما يكابده من سكرات الموت، سواء كانوا أهله أو من كانوا عنده من الحضور. بما يعني ويفيد أنهم في تلك الحال لا يستطيعون دفع ذلك عنه، ولا أن يقدموا له شيئاً يخفف عنه مما هو فيه من معاناة سكرات الموت، لينتفع به ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾ ونحن بِمَلَكِ الموت الذي لا ترونه مع بقية الملائكة أقرب إليه منكم، وأدنى إليه من أهله الملاصقين له ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾ ولكن لا تدركون ولا تشعرون ولا ترون ذلك القرب بأعينكم، ولكن حقيقة ذلك تبين وتوضح لكم قُربنا منه بعظيم قدرتنا منه أكثر من قربكم منه الملاصق له. ولكن ممتنع ذلك عليكم. بما يؤكد لكم عظيم قدرتنا، وقرب قضائنا وإرادتنا من كل أحد في كل شيء. مع كمال عجزكم عما هو أقرب إليكم مكاناً. فإن في ذلك بيان بالحجة والبرهان الساطع أن الله تعالى عظيم في قدرته، وإرادته، وأن الوقائع تبين لكم حقائق الغيب التي تُلزِمُكُم أن تُؤمنوا بها، ومن ذلك البعث والنشور، والحياة بعد الموت، والحساب والجزاء والجنة والنار.

فإن كنتم لم تروا نزع الروح، ولا ملائكة الموت، بغياب ذلك عنكم، فإنكم ترون بأبصاركم وبصائركم ما حل بمن احتضر وحان أجله، مع إيمانكم بالموت، فإنه بهذا الاستدلال يلزمكم أن تصدقوا وتؤمنوا بما جاءكم من رسالة ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا من عظيم الاستدلال على عظمة الله تعالى، وعظيم

قدرته، وتقنينه وتدبيره لشأن خلقه، وأن الغيب حق، والواقع يُثبِت الغيب الذي أخبر الله تعالى به. كما يثبت ذلك البيان قصور علم الإنسان، وعمق جهله. فليتعلم من القرآن الذي جعله الله تعالى مباركاً ليدبروا آياته، فإنه يرتقي بعقل المؤمنين في كل شأن، بل ويصل بمن اتبعه إلى جنات النعيم.

ومن بلاغة البيان: الاستهلال بحرف التحضيض في قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ إذ أفاد حرف التحضيض ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ لفت الانتباه بالاستدعاء المثير الذي يستوجب معاينة عظمة قدرة الله تعالى، مع كمال وتمام عجزكم ،وعجز مَنْ حوله من محبيه أن يمنعوا عنه ما هو فيه، أو يخففوا عنه شيئاً من سكرات الموت. ومن دقائق البيان إيراد قوة وشدة خروج الروح بتغييب ذكر الروح، فقد أخفاها لفظاً كما أخفاها حقيقة عن عباده. فكان إيجازاً بلاغياً وقدرة، وفي نفس الوقت إشغال المتلقي ببلوغها الحلقوم من دون ذكر لها. فلم يقل سبحانه وتعالى: فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم، بل ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ إعجاز في القدرة الربانية، وفي بناء السياق العظيم الذي جمع بين عظمة القدرة، وعظمة البيان، وقوة بلاغته.

وكذلك من فوائد دقائق السياق الكريم أنه لم يذكر المنظور ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ ليشمل النظر لمن هو في حالة الاحتضار. وتنظرون عجزكم، وتنظرون عجز المحتضر عن أن ينقذ نفسه، وتنظرون حاله وضعفه، وربما كان متعالياً متغطرساً، ومتجبراً. وتنظرون لمعاناته، وتنظرون لمظاهر الغيب، من خروج الروح، وملائكة الموت، ثم بقاء الميت جثة لا حراك له. كل ذلك شواهد تبين لكم وجوب الإيمان بالغيب، ومنه البعث من القبور، والحساب والجزاء. وما يلزم ذلك من التصديق بالرسول عليه الصلاة والسلام ومتابعته.

ثم ينتقل بهم البيان الكريم إلى تقريرهم بما يجب حيال هذه الأدلة والبراهين العظيمة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ فإن كنتم غير محاسبون، ولا مجزيون على أعمالكم في الدنيا، هل تستطيعون أن ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هل تستطيعون إعادة هذه الروح إلى هذا الإنسان المحتضر، والتي قد بلغت نفسه الحلقوم، فتعيدوها إلى مكان استقرارها التي كانت فيه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في إنكار البعث بعد الموت. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن معنى قوله تعالى ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غيرَ محاسبين. وقال قتادة رحمه الله تعالى غيرَ مبعوثين، وغير محاسبين[1] فهي محاجة تُرغمهم على الإقرار بكمال قدرة الله تعالى، وقصور علمهم وقدرتهم، ووجوب الإيمان بما يجب من علم الغيب كما غاب عنهم حال هذا المحتضر الذي كانوا ملاصقين له في القرب، وبالرغم من ذلك هم عاجزون أمام غيب نزع الروح منه، وما يعانيه من سكرات الموت.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٣٧٥)

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾
فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾
وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

ثم يختم الله تعالى سورة الواقعة بمثل ما بدأت به من الإعلام بأقسام طبقات الناس عند الله تعالى يوم القيامة، وما سيجدونه من الجزاء الموافق لِمَا كان منهم في الدنيا من الإيمان والطاعة، أو الكفر والجحود. فقال تعالى ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ فإن هذا الذي حضرته الوفاة، وبلغت نفسه الحلقوم، إما أن يكون ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ أي: مُقَرَّب من الله تعالى، بسبب طاعته، وهم السابقون، الموصوفون فيما سبق من هذه السورة الكريم بالسابقين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هم الذين فعلوا الواجبات، والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، وبعض المباحات[١] فيكون الجزاء هو ﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴾ فله ثلاث كرامات: الأولى ﴿ فَرَوۡحٞ ﴾ وهو وصف يجمع مجامع الخير، من الفرح والراحة، والمغفرة، والجنة. وقد تعددت الدلالات التي تفيد كثرة وتنوع ما يجده المقربون عند الله تعالى من التكريم. فقيل في معناها ستة دلالات: أحدها: الفرح، والثاني: الراحة. والثالث: المغفرة والرحمة. والرابع الجنة. والخامس: رَوْحٌ من الغم الذي كانوا فيه، أي راحة من غم الدنيا. والسادس: رَوْحٌ في القبر. أي: طيب نسيم[٢] وجميع تلك الدلالات متضافرة في معناها، فمن قوة البيان وبلاغته أن جمع جميع تلك الدلالات في كلمة واحدة. من غير تعارض ولا تضاد. ولا ينفي بعضها البعض.

وأما الكرامة الثانية: فهو قوله تعالى ﴿وَرَيۡحَانٞ ﴾ أي: الراحة من عناء الدنيا، وكريم الرزق العظيم من الخير. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالريحان: المستريح من الدنيا. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: الرزق. وعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: الرَّوْحُ: الفرح، والريحان الرزق. وقيل: معنى ذلك أن أرواح المقربين تخرج من أبدانهم عند الموت بريحان تَشُمُّه. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عُني بالروح الفرح والرحمة والمغفرة. وأصله من قولهم: وجدت روحاً، إذا وجد نسيماً. وأما الريحان فإنه عندي: الريحان الذي يُتلقى

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢١/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٦/٧)

به عند الموت[١] وقال مقاتل رحمه الله تعالى: هو الرزق بلغة حمير[٢] ولا تعارض بين تلك الدلالات، فجميعها إكرام من الله تعالى للمقربين.

وأما الكرمة الثالثة: فهو قوله تعالى ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وله مع ما سبق من ذلك التنوع، فإن له البساتين التي يتنعم بها من كان من فئة المقربين. فال ابن كثير رحمه الله تعالى: تبشرهم الملائكة بذلك عند الموت. كما ورد في سورة فصلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وكما ورد كذلك في حديث البراء: أن ملائكة الرحمة تقول (أيتها الروح الطيبة، في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، وربِّ غير غضبان)[٣] وهذا من فضل الله تعالى للمقربين، بما يفيد الحث والترغيب للمؤمن أن يكون من المقربين بلزوم الطاعة، واجتناب المحرمات والمكروهات.

ثم ينقل البيان الكريم من الله العلي العظيم إلى بيان الجزاء العظيم لأهل اليمين، الذين هم دون المقربين، وكل منهم في نعيم، ولكن الله تعالى بحكمه وحكمته فاضل بين الناس بحسب كمال طاعتهم له عَزَّ في علاه. وهذا من كمال عدله العظيم مع عباده المؤمنين. فقال تعالى ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، وأصحاب المنزلة الرفيعة، الذين منزلتهم على اليمين. لأن جهة اليمين تدل وتفيد على علو المنزلة والتكريم والحفاوة. ﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ فلك السلامة من كل غم وكدر وخوف. بمعنى أنك في أمان الله سبحانه وتعالى وحفظه وعنايته. وبالتالي فأنت سالم من كل غم وكدر. فلا خوف عليهم من قادم، ولا حزن عليهم من فائت. وورد في ذلك ثلاثة دلالات: أحدها: فسلامة لك من العذاب. عن ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: تُسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين. قاله عطاء رحمه الله تعالى. والثالث: أنك ترى فيها ما تحب من السلامة، وقد عَلِمتَ ما أُعدَّ لهم من الجزاء. قاله الزجاج[٤] وليس هناك ما ينفي اجتماع تلك الدلالات، بل إنها متوافقة. إذ أن أوجه دلالتها تحمل جميع تلك المعاني، وهي من بلاغة القرآن، إذ تقل ألفاظه وتكثر أوجه معانيه ودلالاته في تظافر من غير تعارض.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٣٧٦-٣٧٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٥٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٢١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٩٦)

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العلي العظيم إلى بيان الجزاء المهيب الذي ينتظر الكفرة المكذبين، الذين ضلوا عن طريق الحق، وحادوا وانحرفوا عنه. فقال تعالى ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وأما إن كان المحتضر من الفئة الكافرة التي كذبت بالحق، وما يتبعه من التكذيب بالمرسلين، وبالكتب، فأنكرت البعث بعد الموت، فأصبحوا من الضالين عن هدى ربهم سبحانه وتعالى، والذين هم أصحاب الشمال ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ فلهم الأمكنة التي شرابها من نار جهنم ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الشديد في حرارته وغليانه، والذي بلغ أقصى درجة الغليان، فهو شراب أهل جهنم. وكذلك لهم ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي: يشويه ويحرقه عذاب الجحيم الذي هو عذاب النار، وتم تسمية النار بالجحيم، لبيان قوتها، بأنها من كثرة توقدها وتأججها، حتى أصبحت النار بعضها فوق بعض تتأجج. بما يعني المزيد من التهكم بحالهم الذي أرداهم هذه المهالك، باختيارهم الكفر وجحود الحق على الإيمان. وليكون في ذلك إنذار لأهل الدنيا بأن يتجنبوا ذلك المصير بالدخول في دين الله تعالى، الذي أنزله ربهم سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فإن ذلك المصير لِمَن كفر ولم يؤمن. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يبين لهم مآل وجزاء كل فئة من الناس بما تستحق، عدلاً من الله تعالى في عباده. فالحمد والشكر على عدله تبارك وتعالى، وعظيم تفصيل بيانه العظيم.

ثم يخبر الله تعالى عما سبق من البيان الواضح الجلي في هذه السورة العظيمة، بأنه حق ثابت لا ريب ولا شك فيه. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ إن هذا الذي ذكرناه لكم من أصناف العباد، وما لكل صنف مما أعددناه لهم ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ لهو حق ثابت ﴿ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي: المجزوم به، فيراه كل مَوعُودٍ كما أخبرناكم به، حقاً يقينا بلا ريب ولا شك فيه.

ومن بلاغة تأكيد هذا البيان أنه اشتمل على أربع مؤكدات، كما ذكر ذلك ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهي: ﴿ إِنَّ ﴾ ولام الابتداء ﴿ لَهُوَ ﴾ وضمير الفصل الذي التحق به لام الابتداء ﴿ لَهُوَ ﴾ وإضافة شبه المترادفين[١] ﴿ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ فهذه أربعة مؤكدات، تؤكد حقيقية ما أخبر الله تعالى عنه فيما سبق من هذه السورة المباركة.

وبعد أن بين وأوضح تبارك وتعالى كمال عدله في الجزاء يوم القيامة، وما يناله كل فريق بما يستحق، يختم الله تعالى سورة الواقعة بالأمر بتنزيهه عَزَّ وجل عما لا يليق بعظمته وجلاله، وعظيم إنعامه، وعظمة آياته في خلقه وتدبيره. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فنزه ربك أيها الإنسان، بتعظيمه،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٧/١١)

وتنزيهه عن كل ما لا يليق بعظمته التي أظهرها لكم من الإنعام بالزروع، والمياه الزلال، وأن خلق لكم النار حتى توقدون وتقضون بها حاجاتكم. وأخبركم بأضدادها، لتدركوا فضل إنعامه عليكم. فإن ربكم عظيم جَلَّ جلاله ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: سبح صاحب العظمة والجلال التي ليست لأحد من خلقه. فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به. ومن ذلك قول: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر. وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم. ولم يعين والخطاب والأمر أحداً بعينه ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ليشمل جميع المخَاطَبين، فيأمرهم بطاعته وبكثرة التسبيح.

واصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، من إضافة ما ليس له في اسمائه أو صفاته، أو من ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[1] فالتسبيح هو التنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تعظيم لربنا عَزَّ وجل. فإنه سبحانه وتعالى مقدس ومنزه ومطهر في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي يناسب ألوهيته وربوبيته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه وغير ذلك مما لا يليق به عَزَّ في علاه.

ويغلب على مكان انطلاق التسبيح أنه من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقد العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويُصدقه الفعل والتطبيق بالعمل والامتثال، وذلك بالبعد عن الشرك والرياء، ونحوه، وإضافة إلى ما يلهج به اللسان من المحامد. وكما أن منطلق الذكر هو القلب، فإنه يجتمع معه الفعل كالصلاة، لأنها ذكر، لِمَا فيها من التسبيح والتكبير، وتجريد أدائها من الشرك والرياء، وإخلاصها لله تعالى.

ومن بديع السياق الكريم أن الأمر بالتسبيح ورد هنا ختاماً لجميع ما سبق من البيان الكريم الذي تناول أقسام الناس يوم القيامة، والجزاء والمصير. وإقامة الحجة الناصعة التي تبين للإنسان عظيم قدرته جَلَّ جلاله، إذ خلق الإنسان من نطفة، وخلق الزروع بالإنبات من الحبوب التي لا حياة فيها، ولو شاء لجعله هشيماً. وكذلك أنزل الماء الزلال من السحاب، ولو شاء لجعله أجاجاً من كثرة ملحه. وخلق النار لتحقيق وتيسير مصالح العباد. فاستوجب ذلك تعظيم الله تعالى. كما أن في ذلك بيان بأن ما نسبه المشركون لربهم من الأنداد وغيرها باطل، ولا يليق بجلاله وعظمته عَزَّ في علاه.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

وقد ورد الأمر بالتسبيح على إطلاقه دون تقييده بوقت، ولا بصفة ولا بهيئة محددة، حيث قال تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ لتستوعب جميع الدلالات. إذ تأتي بمعنى: صَلِّ لله سبحانه وتعالى. ونزهه بلسانك، واعتقادك، وبأفعالك. فجميعها متوافقة، ولا تعارض بينها، بما يبين أهمية وعظمة مداومة التسبيح. فلا يزال اللسان رطباً بذكره عَزَّ وجل. فإنه قوة وعزة عظيمة للمؤمن، وأن الله تعالى يدفع به الشرور، ويجلب به الخير.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الواقعة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.